

الجغرافيا و المسائل الحاسمة

ترجمة بتصريف : أ.د. مضر خليل عمر

بالنسبة لمعظم الأمريكان فان الجغرافيا معنية بأسماء الأماكن ، و يقصد بالأمية الجغرافية عدم قدرة البعض على توقيع المدن و البلدان و الأنهر على خارطة العالم ، و تعليم الجغرافيا عندهم مساو في الغالب لمعلومات عن أماكن من العالم لا غير . من هذا المنطلق فانه مفاجئ لهم أن تكون للجغرافيا صلة بالعديد من المسائل الحاسمة التي تواجه المجتمع في القرن العشرين . والجغرافيون و غيرهم يعتمدون المعرفة الجغرافية و منظورها وهم مرتبطون بأبحاث و تدريس مواد قيمة تمتد بين التغيرات البيئية إلى التعارضات الاجتماعية . وقيمة هذه النشاطات مستمدة من تركيز الجغرافيا على تطور خصائص سطح الأرض و تنظيمه بطرق مختلفة ناتجة عن تفاعل الظواهر الطبيعية والبشرية في المجال لتشكل أماكن وأقاليم ، وعلى تأثير هذه الأماكن والأقاليم على سلسلة واسعة من الأحداث والعمليات الطبيعية والبشرية . وهذا ليس ببساطة ناتج عن توسيع المعرفة الموسوعية للأماكن البعيدة ، بل إنها تعود إلى قلب بعض أكثر الأسئلة الراهنة الملحة التي تتطلب اتخاذ قرار ، مثل : كيف تستجيب المجتمعات للتداعي البيئي المتسارع في العديد من أجزاء العالم ؟ ما هي الأسباب المؤدية إلى زيادة الفجوة بين الفقراء والأغنياء ؟ وما هي نتائجها ؟ ما هي الآلية التي تحرك نظام المناخ العالمي ؟ ما هي الأسباب وراء الفيضانات المدمرة التي تحدث في السنوات الأخيرة ؟ وكيف يمكن أن تواجه المجتمعات مثل هذه الأحداث ؟ كيف تتغير النظم الاقتصادية والاجتماعية بتغير التقنيات ؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تتعدى قدرة أي تخصص علمي مفرد ، و إن كل سؤال منها له أبعاده الجغرافية الجوهرية ، البعد المهمل من قبل الكثيرين . إن المنظور الجغرافي معني بالعمليات والظواهر في المكان و مجاله space . ويحفز المنظور الجغرافي عملية البحث في إجابة عن أسئلة مثل : لماذا توجد ظاهرة معينة في بعض الأماكن دون غيرها ؟ ما هو التوزيع المكاني للنباتات أو أناس معينين أو لغات محددة ؟ وكيف تعمل العمليات (المعالجات processes) الطبيعية والبشرية في المكان ؟ وكيف يؤثر وجود ظاهرة معينة في مكان معين

على الظواهر الأخرى فيه ؟ وكيف تتأثر الظواهر الموجودة في أماكن مختلفة ببعض ؟ كيف إن معالجة ما تعمل بمقياس (مستوى) جغرافي معين تؤثر على المستويات الأخرى scales ؟ ما أهمية الموقع ليؤثر (أو يحول دون) على التغيرات السياسية ، الاجتماعية ، الاقتصادية أو البيئية ؟ إن أهمية المنظور الجغرافي للعديد من المسائل المعاصرة الحاسمة في المجتمع يتم توضيحها من خلال عرض أمثلة مختارة في الأجزاء اللاحقة من هذا التقرير .

المعافاة الاقتصادية

لربما كان السبب الرئيس للاهتمام الشديد للمجتمع الأمريكي بالجغرافيا خلال عقد تسعينات القرن الماضي هو مشكلة توفير فرص عمل و تدني الدخل و الاستثمارات المرتبطة بالأسواق العالمية . لقد تبنت الولايات المتحدة وركزت على الأهمية القصوى لعملية إعادة تركيب الاقتصاد العالمي ، حيث تبحث كل أمة عن إيجابيات تنافسية لتوفير المنتجات و الخدمات التي يتطلبها الاستهلاك العالمي . فلم يعد المواطن الأمريكي في أعلى مستوى المعيشة في العالم ، و يعتقد العديد من الأمريكيين بان البلدان الأخرى أفضل من حيث توفر فرص العمل من الولايات المتحدة في الوضع الاقتصادي العالمي الجديد . يضاف إلى ذلك ، فان مدن الولايات المتحدة وأقاليمها تتعامل مع أبعاد أخرى للتغيرات الاقتصادية العالمية ، مثل إنقاص النفقات العسكرية بعد نهاية الحرب الباردة و زيادة الاهتمام بالبيئية وإدامتها .

ويتوقع من الجغرافية ضمان تدفق المعلومات الدقيقة و المفيدة و في وقتها المناسب عن أرجاء العالم المختلفة ، ولكن الجغرافيا أكثر من مستودع للحقائق والمعلومات . فهي تتقصى عن : كيف ولماذا تتدفق السلع و الأموال و المعلومات و الطاقة من مكان إلى آخر ؟ ما هي خصائص المكان التي تؤدي إلى جعله أفضل من غيره اقتصاديا ؟ ما هي أفضل السياسات المؤدية إلى التنمية الاقتصادية على المستوى الوطني و الإقليمي و المحلي ؟ ما هي الصلة بين التغيرات الاقتصادية العالمية والتغيرات البيئية العالمية ؟

لقد جاءت مساهمة الجغرافيين في عملية فهم والاستجابة للتغيرات الاقتصادية من خلال التركيز على المكان و المجال - تأثير المكان كموقع و المجال ممثلا بالصلات بين المواقع و بمقاييس مختلفة - على التغيرات الاقتصادية و التنمية . فعلى سبيل المثال ، فقد استخدم

Glasmeyer & Howland قطاع الخدمات المنوع و السريع النمو لدراسة تأثير معلومات التقنيات المتقدمة على نمو المناطق الريفية في الولايات المتحدة ، وقد توصلنا إلى تمييز المناطق الريفية وكذلك تحديد الفروقات الاجتماعية و الاقتصادية و الجغرافية بينها . فالجغرافيون لا ينظرون للأمم وكأنها قطع موازيك لأنها بحد ذاتها موازيك ، أي إنها متباينة جغرافيا ومكونة من موارد ومعارف محلية . ويذهب الجغرافيون إلى ما بعد التقديرات الإقليمية لكلف الإنتاج وأسواقها ليفهموا العلاقات المعقدة بين العمليات و ظروف الأقاليم سياسيا واجتماعيا وبيئيا . وقد نظر Markusen إلى التاريخ السياسي للأقاليم والإقليمية ضمن الولايات المتحدة ليعود به إلى الحركات السياسية و التركيب الاقتصادي ضمن بيئته التاريخية و الجغرافية . يختبر الجغرافيون الموقع كعامل يؤثر على الصلات بين أماكن معينة وعلى التدفقات و التغيرات العالمية . ومثال جيد عن هذا المنحى الجغرافي هو تحليل العلاقات بين نمو الاقتصاد الإقليمي في الولايات المتحدة و نمط المصروفات العسكرية . حيث يشير التحليل إلى التباين في النمط الجغرافي للتمويل المالي الحكومي للصناعات والدعم المالي لنشاطات القطاع الخاص لأسباب إستراتيجية مثل لا مركزية الإنتاج وأهمية العلاقات بين عقود الدفاع المبرمة ، و المكاتب العسكرية و قرارات الكونكرس . إضافة إلى أن فترات الصرف للشئون العسكرية متباينة جغرافيا وان الصريفات لكل فترة زمنية ذات تركيز مكاني عالي . فمثلا ، أثناء الحرب العالمية الثانية فان كوريا و فيتنام تعززان الصناعات في الشمال الشرقي و الوسط الغربي ، بينما في فترة الحرب الباردة كان نمط الصرف نحو الجنوب والغرب و نيوانكلند . وهذه التركزات تجعل من الصعب على الأقاليم المعتمدة على الصريفات العسكرية أن تتكيف مع التغيرات السياسية والاقتصادية من فترة لأخرى . ونتائج مثل هذه الأبحاث تساعد الحكومة الفدرالية لتقييم ضرورة إعادة تشكيل برامجها لتساعد المجتمعات المعتمدة على الإنتاج العسكري و تعديل الخطط . وساعد هذا في تحفيز المواطنين والمسؤولين و توعيتهم على المستوى الوطني والإقليمي والمحلي بإستراتيجيات إعادة التأهيل المهني و فرص العمل وإعادة استخدام تسهيلات المعامل الموجودة ومرافقها .

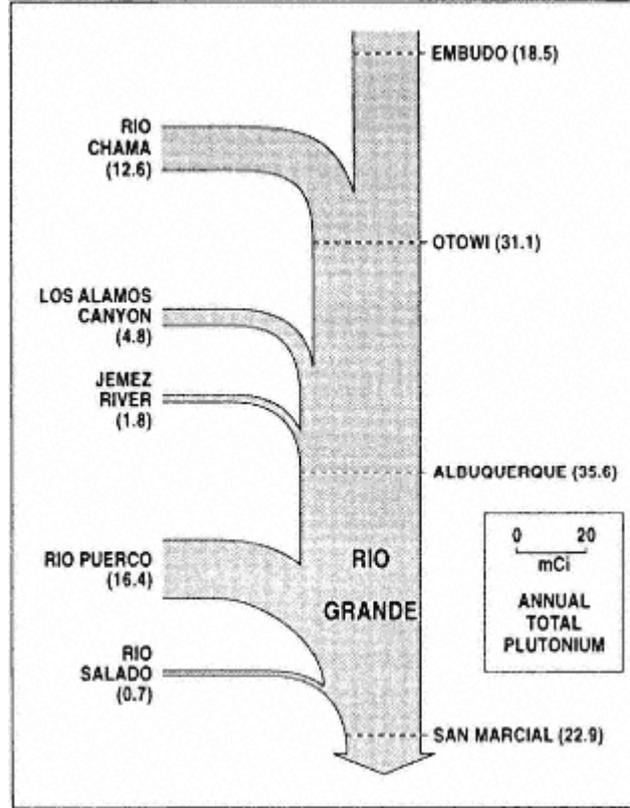
تدهور البيئة

بالقرب من انتهاء القرن العشرين يتنامى الاهتمام بمسئولية الإنسان عن تداعي البيئة وتدهورها بشكل غير قابل للإصلاح . فسلطة واسعة من نشاطاته في الصناعة والزراعة قد ساهمت في إيجاد هذه المشكلة التي منها تلوث الهواء ، والأرض و الماء . ففي العديد من بقاع العالم وصلت نوعية الهواء إلى درجة من التداعي لتشكّل خطرا على المجتمعات النباتية والحيوانية ، وكذلك صحة الإنسان نفسه . فالاستعمال المكثف للمخصبات و المبيدات في الزراعة وزيادة كمية الفضلات التي تخزن على سطح الأرض أو قريبا من السطح قد أثّفت نوعية سطح كوكب الأرض .

إن استيعاب مسألة تدهور البيئة و مواجهته يتطلب أكثر من تحليل فيزيائي لملوثات معينة أو تحليل مؤسسات صناعة القرارات ، انه يتطلب تحليلا جغرافيا أيضا . لماذا تتركز الصناعة الملوثة في مواقع معينة ؟ أين تذهب الملوثات حال خروجها من المعمل أو عند دفنها تحت الأرض ؟ ما هي أفضل الأماكن لتوقيع الصناعات و مرافق تصريف الفضلات الخطرة؟ ما هي العلاقة بين الأنماط السياسية و الأنماط البيئية ، وكيف يؤثر تلاقي الاثنين على المحاولات الجارية لمواجهة تداعي البيئة و تدهورها ؟

إن الإجابة عن أسئلة جغرافية مثل هذه يتطلب تحليلا دقيقا للخصائص المكانية للتلوث والتفاعل الدينامي بين الإنسان و البيئة في المكان . وكمثال توضيحي نشير إلى انه أثناء مشروع مانهاتن الأول وخلال فترة قصيرة بعده أطلق عمال المختبرات بعض plutonium إلى أرضية النهر المجاور حيث التصقت بمواد مترسبة هناك . وبعد عقود فان العمليات الطبيعية قد نقلت بعض هذه الترسبات و ما التصق بها من بلاتنيوم إلى نهر ريو كراندي مسببة زيادة في التدهور البيئي و المخاطر الصحية . وقد أوحى بذلك التحليل الجغرافي لتدفق البلاتنيوم عبر نظام النهر . (شكل 2.1) وخلال سنوات حاسمة فان مساهمة البلاتنيوم من ذلك المختبر قد وصلت إلى 86% من المجموع . ولا يهم المصدر إلا أن تحليل موجودات البلاتنيوم و تدفقها فان نصفها قد انتقل عبر نظام النهر . أما النصف الثاني فقد اختزن في نظام النهر نفسه و بعمر يصل إلى 24000 سنة ليبقى خطرا كامنا ، خاصة عندما يكون تركيزه مؤثرا من خلال السلسلة الغذائية . إن موقع المواد الخطرة المخزونة هذه مسيطر عليها من خلال الآلية المكانية لنظام النهر . ففي شمال نهر ريو كراندي يتم امتصاص البلاتنيوم من قبل الرسوبيات والتي

تترسب بمعظمها في قاع النهر وفي سهله الفيضي و مجراه و الخزانات المائية المرتبطة به .
والتركيزات في هذه النقاط ذات تأثير مضاعف مقارنة مع التركيزات في مجراه . وبهذه الطريقة
فان استيعاب العمليات الجيومورفولوجية تساعد في إدراك المخاطر البيئية وبالتالي تحسين عملية
تقييم المخاطر و تقليلها .



شكل (2.1)

تدفق البلاتنيوم الملتصق بالترسبات و الذائب في المياه في نظام نهر ريوكراندي الشمالي شمالي
نيو مكسيكو . المساهمات السنوية للبلاتنيوم في النهر بمعظمها تأتي من الصناعات
و السيول من لوس الاموس كانيون . إن عرض السهم يتوافق مع كمية البلاتنيوم المنقول عبر
النهر . ويمثل السهم التدفق عبر النهر و تناقص حجمه باتجاه مصب النهر يؤشر ترسب
البلاتنيوم و خزنه في النهر نفسه .

التعارضات العرقية

خلال العقود الماضية قوضت التعارضات العرقية التراتب الاجتماعي والسياسي في العديد من المدن و البلدان والأقاليم في العالم . والتعارض بين المجاميع العرقية قد تأثر على مستويات متنوعة وفي بعض الحالات مكونة أزمات بشرية رئيسة . نتيجة ذلك فقد جذبت التعارضات العرقية وبشكل متزايد انتباه المؤسسات و المجتمعات العلمية و المعنية بصناعة القرارات . فكانت المحاولات لاستيعاب الأسباب و النتائج لهذه التعارضات ، وصانعي لقرارات متمسكون بسياسة تخفيف العداوات بين المجاميع .

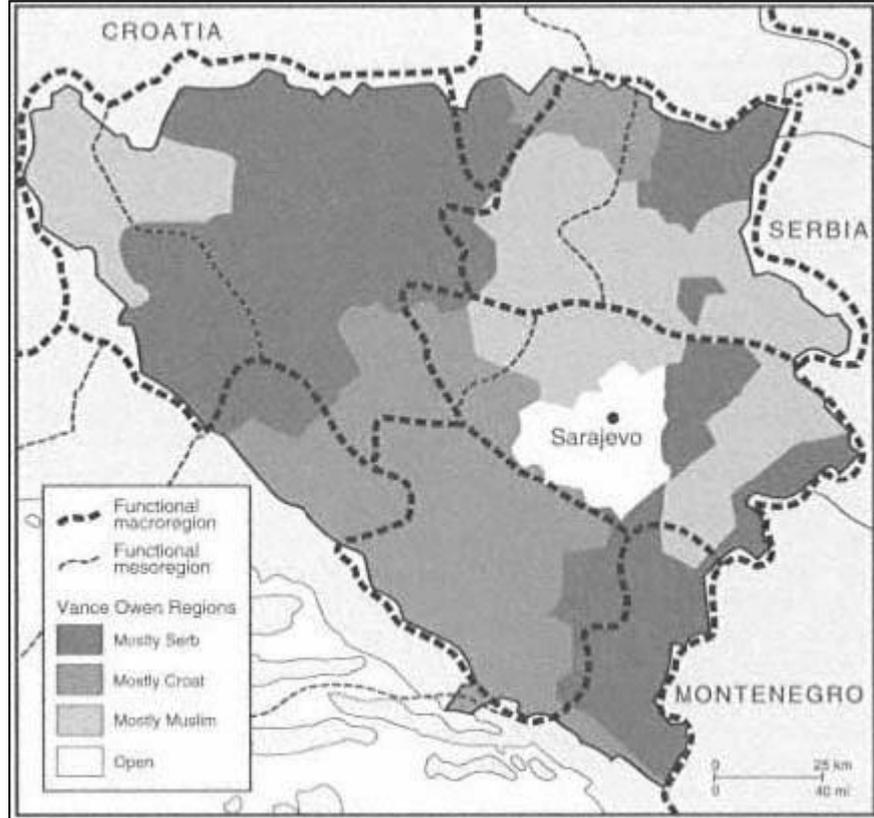
ولقد عطلت أبحاث أكاديمية جادة من خلال الميل للتركيز بدرجة كبيرة على حالات أو أمم معينة بشكل منفرد . وهذا الاتجاه يعرض أهمية الدراسة الجغرافية للتعارضات العرقية. فالناس تتطلع و تتحى لاستيعاب الكيفية التي يجب أن ينتظم بها العالم و تتم بها عملية تحديد حدود المناطق (التي هي في الغالب أسس غير معلنة و غير مختبرة بعد) . وفي غياب أي تحليل نظامي لهذا الاستيعاب الجغرافي فان جغرافية التعارضات العرقية يمكن أن تنقلص و تكون مجرد تسمية لأقاليم استنادا إلى المجاميع البشرية التي تقطنها . فالتحليل الجغرافي الجاد للتعارضات العرقية يمكن أن يسلط الضوء على الأبعاد المكانية و المحلية و البيئية لتفاعل المجاميع العرقية . أي إثارة تساؤلات عن طبيعة التركيب السياسي لمنطقة معينة و تميزه ، ودور الحدود و التدفقات بين الأماكن وخصائصها التي تؤثر و تسيطر على البيئة الطبيعية و تشكل التعارض و التعاون بين المجاميع . والعمل الجغرافي على هذه الخطوط له مضامينه الواضحة لتطوير سياسات استجابة للتعارضات العرقية . وبشكل أوسع ، إنها تركز الانتباه على مسائل جوهرية في استيعاب التعارضات الدينامية بين المجاميع العرقية ، بما فيها درجة شرعية التنظيم المكاني من قبل مختلف السكان ، و طرائق التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية التي تكون مفضلة عند التركيب المكاني السائد ، تضمينات التنظيمات الإقليمية للعلاقات بين المجاميع و استيعاب تأثير اللا توازن الإقليمي على الإستقرارية الاجتماعية والسياسية .

النظرة الثاقبة للمنظور الجغرافي للتعارضات العرقية توضحها حالة البوسنا بعد انفصالها عن يوغوسلافيا أوائل تسعينات القرن الماضي . فخطة فانس - اون مبنية على محاولة تقسيم البلد على أساس خارطة عامة لتوزيع اللغات . فتحليل أنماط الرحلات اليومية تبين أن الوحدات

المكانية التي اعتمدها الخطة ليس لها علاقة بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي في البوسنة قبيل اندلاع الصراعات ، وهذا ما يفسر المعارضة القوية للخطة من قبل السكان . (ينظر شكل 2.2) . بالإضافة إلى ذلك ، فان تحليل جغرافيو حكومة الولايات المتحدة قد أوضح أن تحديد عدد كبير من الجيوب العرقية في خطة فانس - اون قد أدى إلى إيجاد عدد كبير من الحدود بين المجاميع المتعارضة . فعندما لا يلتزم الأعداء بالسلام فان زيادة عدد الحدود بينهم لا يشكل مسارا واعداء بل الخلافات . وبالأخذ بالحسبان الاعتبارات الجغرافية لمثل هذا التحليل فانه يسهم في إيجاد حل لمشكلة معقدة مثل البوسنة .

شكل 2.2

العلاقات ما قبل التعارضات بين الأقاليم (مؤشرة كخطوط متقطعة) التي حددها تحليل الخصائص مثل أنماط الرحلة اليومية ، وبالنسبة إلى خطة فانس - اون فان تقسيم البوسنة وهيرزكوفينا (المناطق المضللة) قد اعتمدت خارطة اللغات العامة .

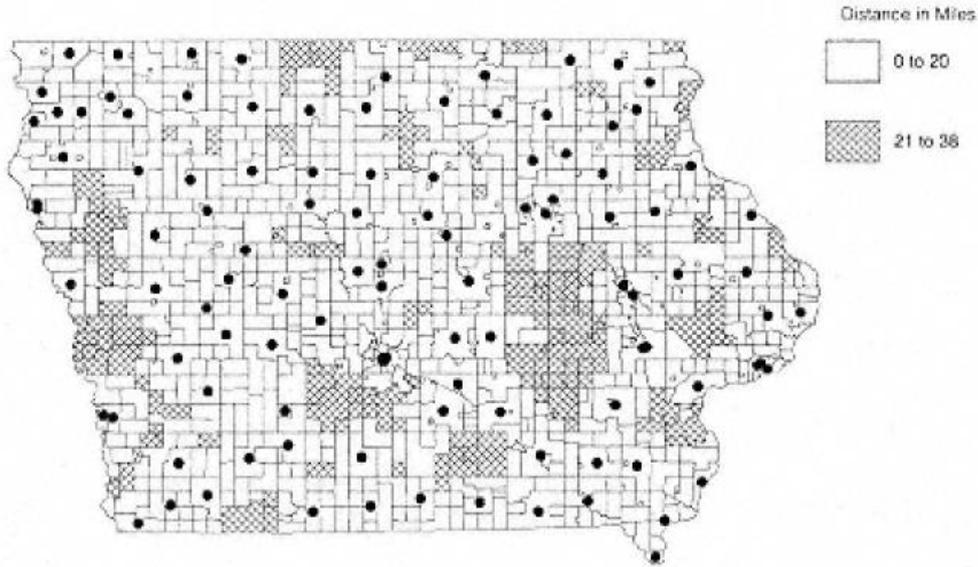


الرعاية الصحية

كيف يتمكن المجتمع من توفير الحاجات الصحية لشعب يتقدم بالعمر في مواجهة للكلف المادية المتصاعدة و زيادة الاعتماد الخدمات الموفرة للعامة و قيود مالية صارمة على القطاع العام ؟ ما هي الاستجابات المطلوبة للحد من انتشار مرض نقص المناعة ؟ كيف يتمكن المجتمع من تلبية حاجات من لا تتوفر لهم رعاية صحية كافية ؟ أسئلة مثل هذه قد جذبت الانتباه في الميادين الأكاديمية و صناعة القرارات . في الواقع إن مثل هذه الأسئلة تفترض الإحساس بالحاجة الماسة والعاجلة نتيجة تنامي الاهتمام بالكلف و الفرص المتساوية للوصول إلى الخدمات الصحية . وللجغرافيا أهمية كبيرة في الإجابة عن هذه التساؤلات . فالخدمات الصحية متوافرة في أماكن محددة ، وان القرار الفاعل عن توقيع خدمة معينة يجب أن يأخذ بالحسبان التنظيم المكاني للناس و المشاكل الصحية و الخدمات ذات الصلة بها . ومن خلال التركيز على فاعلية الموقع فان التحليل الجغرافي يمكن أن يؤشر طرائق معينة لتوفير خدمات الرعاية الصحية و تقليل الكلف و في حالات عدة توفير طرق أفضل لتوفير خدمات صحية حاسمة . ومن الأمثلة التطبيقية للمنظور الجغرافي هو الاهتمام برعاية صحية للأطفال ناقصي الوزن . فالأطفال المولودين وهم دون المعدل في الوزن لهم مشاكلهم الصحية التي تخفض مستوى نوعية حياتهم و تكلف عاليا للمعالجة . ولهذا فان تقليل مثل هذه الحالات الصحية مطلوب اجتماعيا ويساعد في إنقاص كلف الرعاية الصحية في المستقبل . وقد أشار تحليل إلى أن الأمهات الذين يعيشون بعيدا عن المستشفيات التي ولد أطفالهن فيها هن الأكثر تعرضا لولادة أطفال ناقصي الوزن . لماذا وجدنا مثل هذه العلاقة ؟ وخارطة ولاية ايوا (شكل 2.3) تعرض مواقع المستشفيات التي فيها أكثر من 75 ولادة في السنة بوزن منخفض . و أماكن كبيرة في الولاية هي بعيدة بأكثر من 20 ميل عن المستشفيات . وفي وقت انجاز الدراسة (1990) فان المساعدة المالية لخدمات الحمل والطفولة كانت تقدم للمستشفيات بأكثر من 75 ولادة بالسنة . وقد حفزت الدراسة الجغرافية إعادة النظر في هذه الممارسة و توجيه المساعدات لمستشفيات اصغر و في مواقع ريفية تخدم نساء في المناطق الأكثر بعدا عن الخدمات الصحية في المدن . وبعد عام 1990 فان قسم الصحة العامة في ولاية ايوا قد اتخذ قرارات لتعزيز خدمات التغذية و التمريض و التعليم للحوامل موسعا المتطلبات الطبية لأكثر نسبة من النساء اللواتي أصبحن قادرات على تلقي مثل هذه الخدمات .

وما بعد التساؤلات عن توفير البنى التحتية فان التحليل الجغرافي له مساهمات كثيرة في استيعاب انتشار الأمراض والأوبئة . ومنذ اكتشاف مصدر الكوليرا من خلال خارطة توزيع حالات الكوليرا في القرن التاسع عشر ، و بروز أنواع جديدة من الفيروسات الفتاكة فان أهمية المنظور الجغرافي للأمراض الوبائية هو الأكثر حرجة و أهمية . فدراسات انتشار مرض الايدز قد عزز استيعابنا ليس لسلوك فيروس نقص المناعة البشري فقط بل للظروف الاجتماعية والسياسية المساعدة لانتشار الفيروس . فالتحليل الجغرافي قد أصبح اليوم أكثر أهمية من قبل .

شكل 2.3



خارطة ايوا تعرض المسافة عن المستشفيات التي فيها أكثر من 75 ولادة دون الوزن في السنة . والخطوط تمثل حدود المناطق الخمس ، و موقع المستشفى رمز له بدائرة مغلقة . والمسافة بالأميال قد تم تأشيرها بالتضليل .